الخطاب الإصلاحي وآليات الإقناع عند محمد الحجوي من خلال كتاب "تعليم الفتيات لا سفور المرأة"

The Reformist Discourse and the Mechanisms of Persuasion According to Muhammad Al-Hajwi through the Book "Taalim Al-fataiat La Soufour Al-maraa"

محمد أكياس: مختبر الدراسات الإسلامية والتنمية المجتمعية، جامعة شعيب الدكالي، (المغرب)

MOHAMED AKOUIASS: Laboratory of Islamic Studies and Community Development, Choaib Doukkali University, (Morocco).

Email: akopress@gmail.com

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على أهم الآليات الإقناعية التي بنى عليها "محمد الحجوي" خطابه الإصلاحي في كتابه "تعليم الفتيات لا سفور المرأة". ويناقش الكتابُ موضوع تعليم الفتيات المغربيات، بإبراز حكمه الشرعي، وتقديم الأدلة التي تبين ضرورته الاجتماعية، والحكمة منه. ويحدد محمد الحجوي كيف ينبغي أن يكون تعليم الفتيات، والشروط التي يتحقق بمقتضاها. ويسعى البحث إلى تحديد أهم آليات الحجاج في الخطاب الإصلاحي، والكشف عن الاستراتيجيات الإقناعية التي وظفها محمد الحجوي من أجل الدفاع عن رؤيته وأفكاره. ونصوغ إشكال البحث في سؤالين مترابطين: هل يوظف المفكر استراتيجيات إقناعية موضوعية، أو أنه يميل إلى استراتيجيات ذاتية وعاطفية؟ وما هو دور هذه الاستراتيجيات في النهوض بخطاب الإصلاح، والإقناع بجدواه وضرورته الاجتماعية؟

الكلمات المفتاحية: محمد الحجوي، الخطاب الإصلاحي، الحجاج، آليات الإقناع.

Abstract:

In this paper, we aim to reveal some of the compelling mechanisms on which Mohammed Al-Hajwi built his reform speech through his book “Taalim Al-fataiat La Soufour Al-maraa”,"Girls' Education, Not Women's "Sufoor"/Unveiling...", which revolves around the education of Moroccan girls, its legitimate judgment and evidence, its social judgment and wisdom, its legitimacy and wisdom, how it should be and to what extent it should end up. The recipient of its content is convinced through a range of linguistic and polemical mechanisms. Our goal is to identify the most important argumentative mechanisms in reform discourse, as well as revealing the objectivity and subjectivity of emotional persuasion strategies in Mohammed al-Hajwi's reform discourse, how these strategies are used in a process and how emotional persuasion strategies are shaped in his reform discourse, and how these strategies are used in persuasion.

Keywords: Muhammad Al-Hajwi, reformist discourse, persuasive mechanisms, arguments

المقدمة:

يعدُّ "محمد الحجوي" من المفكرين الإصلاحيين البارزين في الفكر المغربي، لاسيما أنه شهد فترة حاسمة من تاريخ البلاد. وأسهم في الحركة الفكرية التي تهدف إلى النهوض بأحوال المجتمع، وإصلاحها في جميع المستويات؛ وتحديدا المستويين الاقتصادي والاجتماعي اللذين يشكلان أهم ركائز تحقيق النهوض، والخروج من أزمة التخلف التي يعاني منها المجتمع.

وحظي موضوع إصلاح أوضاع المرأة بعناية كبيرة في مجمل كتاباته؛ إذ «توقف عنده في مناسبات كثيرة، وعالج قضاياه في معظم كتبه الفقهية، ولا سيما في كتابه (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي)[1]»، وكتابه (الرحلة الأوروبية)[2]، وكتابه (الرحلة الأندلسية)[3]، وسواها[4]. ووصف المفكر "الحجوي" أحوال المرأة في المجتمع، وانتقد الأوضاع التي تعيشها، مقارنا بين مكانة المرأة في المغرب، وبين نظيرتها في المجتمعات الأوروبية. وهذا يجعل خطابه خطابا إصلاحيا، يدفع إلى الإقناع بضرورة النهوض بأحوال المرأة، وينتقد أوجه الاختلالات التي تحدّ من إمكانيات تطور هذه الأوضاع، ومن ثمة تحكم على المجتمع بالفشل في تحقيق النهضة والتقدم.

مشكلة الدراسة:

انطلاقا من الحضور اللافت لموضوع المرأة وقضاياه في الخطاب الإصلاحي لـ «محمد الحجوي"، نبحث في إشكال البعد الإقناعي للخطاب الإصلاحي، واستراتيجياته في الدفاع عن أفكار تغييرية، تهدف إلى النهوض بأحول المجتمع، ولا سيما أوضاع المرأة فيه. ونصوغ أسئلتنا البحثية، كما يلي:

- ما أهم آليات الحجاج اللغوي في الخطاب الإصلاحي عند "محمد الحجوي"؟
- كيف تتشكل استراتيجيات الإقناع الموضوعية والذاتية والعاطفية في خطابه الإصلاحي؟ وكيف توظّف في عملية الإقناع بأهمية الأفكار الإصلاحية؟

[1] بن عزوز محمد (2004): مقدمة كتاب تعليم الفتيات لا سفور المرأة، ط1، الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي، دار ابن حزم.

[2] مخطوط بالخزانة العامة (2003) تحقيق: سعيد الفاضلي، ط1، رقم 115، الرباط: المؤسسة العربية للنشر والتوزيع دار السويدي.

[3] مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم260ح، ورقة 14

[4] بن عزوز محمد (2005): التعاضد المتين بين العقل والعلم والدين، ط 1، الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي؛ بن الحسن الحجوي محمد (1917 – 1932): الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج1 بالرباط، ج2،3 بتونس، ج4 بفاس؛ بن عزوز محمد (2003): مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والتّقى، ط1، الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي.

منهج الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على منهج البحث الوصفي التحليلي؛ إذ ننطلق من مقاربة وصفية استدلالية، تروم عرض أفكار الحجوي في موضوع إصلاح أوضاع المرأة، بهدف تقديم تأويل دقيق مبني على الفهم المتكامل الأبعاد لرؤيته. وفي هذا السياق، سنحلل مضمون الدعوى التي يدافع عنها "محمد الحجوي" في كتابه: " تعليم الفتيات لا سفور المرأة"، مستثمرين تقنية تحليل المضمون التي يعرفها "كلوس كريبوندور" بأنها: "استخدام لمنهج ملائم ومناسب وثابت للقيام باستدلال نوعي، انطلاقا من نص للوصول إلى جوانب أخرى تتعلق به أو بمصادره".

أهداف الدراسة:

نسعى في هذه الدراسة إلى الكشف عن الخصائص الإقناعية للخطاب الإصلاحي، وتحليل الآليات الحجاجية التي استند إليها "محمد الحجوي" في خطابه الإصلاحي، وذلك بدراسة فحوى الدعوى التي يدافع عنها في كتابه " تعليم الفتيات لا سفور المرأة"، ويتمحور موضوع الكتاب، كما يدل على ذلك عنوانه ومقدمته، حول «تعليم الفتيات المغربيات، وعن حكمه الشرعي وأدلته، والاجتماعي وحكمته، وكيف ينبغي أن يكون، وإلى أي حد ينبغي أن ينتهي»[1]، وتبرز هذه الدعوى أن المفكر يهدف إلى إقناع المتلقي بمضمونه، وسيوظف عدّة من الآليات اللغوية والحجاجية من أجل التأثير في المخاطب، ودفعه إلى التصديق على أطروحته، والعمل بها. وهذا يسوغ بحثنا في إحدى أهم خصيصات الخطاب الإصلاحي عند "محمد الحجوي"، بالوقوف على استراتيجيات الإقناع، ووظيفتها في الخطاب الإصلاحي، بوصفه خطابا يسعى إلى تغيير أحوال المجتمع، وأفكار الناس، بالتأثير في عقولهم وعواطفهم.

نخصص المبحث الأول لتحديد المفاهيم الأساس التي تعيننا في الكشف عن ماهية الخطاب الإصلاحي ومظاهر الإقناع التي تضمنها، ونفصل في المبحث الثاني أهم الآليات الإقناعية التي استند إليها "محمد الحجوي" في بناء خطابه الإصلاحي عن أوضاع المرأة، ونختم الدراسة بخلاصات تركز فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها.

[1] الحجوي محمد، تعليم الفتيات لا سفور المرأة، ص29.

المبحث الأول: مفاهيم أساس في الخطاب الإصلاحي والإقناع

استعان "محمد الحجوي" من أجل الإقناع بدعواه الإصلاحية بمجموعة من الآليات الإقناعية التي تهدف إلى التأثير في المتلقي، ولدراسة استراتيجيات الإقناع في خطاب المفكر، نحدد مفهومين أساس؛ وهما: مفهوم "الإقناع"، ومفهوم "الخطاب الإصلاحي".

المطلب الأول: مفهوم الإقناع

الإقناع في اللغة: الإقناع من قنع، و «له–كما قال ابن فارس–أصلان صحيحان، وثالث شاذ. فالأول: الإقبال على الشيء وهو الإقناع. والثاني: يدل على استدارة في شيء، وهو القِنْع، بكسر القاف وسكون النون. والثالث: الإقناع، بمعنى ارتفاع الشيء ليس فيه تصوب». وفي لسان العرب «قنِع بنفسه قَنَعا وقَناعَة: رضِيَ»[1]. والإقناع: «رفع الرأس والنظر في ذلّ وخشوع. وأقنع فلان رأسَه: وهو أن يرفع بصره ووجهه إلى ما حِيال رأسه من السماء. والإقناع: أن يُقْنِع البعير رأسه إلى الحوض للشُّرْب، وهو مدُّه رأسَه. والإقناع: أن تَضَع النّاقة عُثْنُونها في الماء وترفع رأسها قليلا إلى الماء لتَجتَذِبه اجتِذابا»[2]. وفي المعجم الوسيط: «اقتنع، قنع – بالفكر أو الرأي–وقبله واطمأن إليه». وبذلك فهي تدل لغويا على معنيين: السؤال والتذلّل، والرضى[3].

والإقناع في الاصطلاح: «اتصال مكتوب أو شفوي أو سمعي أو بصري يهدف بشكل محدد إلى التأثير على الاتجاهات والاعتقادات أو السلوك، كما أنه القوة التي تستخدم لتجعل شخصا يقوم بعمل ما عن طريق النصح والحجة والمنطق»[4]. أو هي «قصد المتحدث إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي عند المتلقي»[5]. ولذلك شكل الإقناع أحد مقومات الخطابة باعتبارها «قوة

[1] ابن منظور: لسان العرب، ج8، بيروت: دار صادر، ص299.

[2] المرجع نفسه، ج8، ص299.

[3] أنيس إبراهيم وزملاؤه، المعجم الوسيط، ج2، ط2، مكة المكرمة: دار الباز، ص763.

[4] أبو عرقوب إبراهيم (2009): الاتصال الاجتماعي ودوره في التفاعل الاجتماعي، عمان، الأردن: مجدلاوي للنشر والتوزيع.

[5] بليث هنريش (1999): البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النصوص، ط1، لبنان، ترجمة وتقديم وتعليق، محمد العمري، إفريقيا الشرق، ص102.

تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة»[1]. بل ويشكل الوظيفة الأساسية للخطابة حسب أرسطو، والتي حددها في «الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان"[2].

المطلب الثاني: مفهوم الخطاب الإصلاحي

يتألف هذا المركب المصطلحي من لفظتين: الخطاب والإصلاح، ولتحديد دلالته فلا بد من الوقوف على اللفظتين المكونتين له.

الفرع الأول: مفهوم الخطاب

الخطاب في اللغة: تجمع المعاجم اللغوية على أن الخطاب «مراجعة الكلام»[3]. وقد ورد أيضا بمعنى "الكلام"، قال" ابن فارس": «الخاء والطاء والباء، أصلان: إحدهما الكلام بين اثنين، يقال خاطبه يخاطبه خطابا والخُطبة من ذلك»[4]، وقال صاحب " المصباح المنير": «خاطبه مخاطبة وخطابا، وهو الكلام بين متكلم وسامع، ومنه اشتقاق الخُطبة»[5]. والغاية منه الإفهام، لأن المقصود به، (أي الخطاب) –كما قال "الكفوي": «اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه»[6]. وعليه فكل «كلام لا يُقصَد بإفهام المستمع، فإنه لا يُسمّى خطابا»[7].

الخطاب في الاصطلاح: يختلف تعريف الخطاب في الاصطلاح باختلاف المدارس اللسانية والأدبية وكيفية مقاربتها للمفهوم، فأخذ أبعادا اصطلاحية مختلفة ومتعددة، فهو عند النحويين غيره عند البلاغيين، وغيره عند الفلاسفة وهكذا دواليك. وما مرد هذا التعدد إلا لتباين المرجعيات، ولنوعية مضمون الخطاب والحقل التصنيفي الذي ينتمي إليه. ورغم ذلك فإنها تتفق في كونه نصا لغويا مكونا من وحدات لغوية مكتوبة أو ملفوظة، يخضع في تكوينه لقواعد تركيبية وأسلوبية. أو – كما قال نايف خرما– «الكلام المتصل الذي يشمل أجزاء من جمل أو عدة جمل معا»[8]، ويكون الهدف منه هو

[1] أعراب حبيب (2001): الحجاج والاستدلال الحجاجي، مج 30، العدد 1: عالم الفكر، ص107.

[2] العمري محمد (1991): المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، عدد 5، مجلة دراسات، سيميائية أدبية لسانية، ص8.

[3] العين، ج4، ص222–تهذيب اللغة، ج7، ص247–مقاييس اللغة، ج2، 198–لسان العرب، ج1، ص361

[4] مقاييس اللغة، ج2، 198

[5] الفيومي: المصباح المنير، تحقيق عبد العظيم الشناوي، ط2، القاهرة: دار المعارف، ص 173.

[6] أبو البقاء بن موسى الحسيني الكفوي أبو البقاء، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، وضع فهارسه وأعده للطبع، عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ناشرون (دت)

[7] علي التهانوي محمد (1996): كشاف اصطلاحات الفنون1، بيروت، تحقيق، علي دحروج، تقديم وإشراف ومراجعة، د. رفيق العجم: مكتبة لبنان، ص749.

[8] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (1978)، العدد 9، الكويت، سلسلة عالم المعرفة: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص98

التأثير في المتلقي وإقناعه. وهو المفهوم الذي اعتمدناه في هذه الدراسة باعتبار دلالته على كل «منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راو ومستمع، وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما»[1].

يولي محللو الخطاب ودارسوه، منذ القديم، المتلقي بمختلف أنواعه (القارئ/ السامع/ الناقد) اهتماما واضحا، فهو (أي الخطاب) لا يتم بمعزل عن متلق ما؛ لأنه بمثابة دعوة إلى التواصل، لا يمكن أن تتحقق إلا بواسطة التلقي، استنادا إلى نوعية المتلقي الذي يهدف المتكلم إلى التأثير فيه، ونوعية الموضوع الذي يطرقه الخطاب، مما يجعل العلاقة بين عمليتي الإرسال والتلقي فاعلة وإيجابية، وليست سلبية؛ لأنها تتحقق بالعلاقة بين شخص وشخص أو عدة أشخاص، وبواسطة لغة مشتركة تمكّن المتكلم من إيصال الخطاب، والمتلقي من القدرة على الفهم والاقتناع.

الفرع الثاني: مفهوم الإصلاح

الإصلاح في اللغة: تجمع المعاجم اللغوية أن "الإصلاح" كلمة مشتقة من "ص ل ح"، و«الصَّلاح: ضدّ الفساد؛ صَلَح يَصْلَحُ ويَصْلُح صَلاحاً وصُلُوحاً والمَصْلَحة: الصَّلاحُ. والمَصلَحة واحدة المصالح. والاسْتِصْلاح: نقيض الاستفساد. وأَصْلَح الشيءَ بعد فساده: أَقامه»[2]. و«الإصلاح نقيض الإفساد»[3]. و«أصلح في عمله أو أمره: أتى بما هو صالح نافع، أي أزال الإفساد»[4]. ويتضح من هذا المعنى اللغوي، أن مدلول الكلمة يدل على إعادة النظر في الأمر أو الشيء قصد تقويم ما يعتريه من نقصان أو فساد، انطلاقا من قراءة وتشخيص ما هو كائن للانتقال إلى ما هو أفضل وأحسن في إطار الشريعة وتعاليم الإسلام الحنيف.

الإصلاح في الاصطلاح: لقد اشتق المصطلح دلالته الاصطلاحية من معناه اللغوي، فأصبح يدل على «التغيير إلى استقامة الحال»[5]، أي التعديل أو التغيير نحو الأحسن، سواء في السلوك الإنساني، أو في الحياة عامة، أو في المؤسسات، أو في العلاقات الاجتماعية وسواها. وهو التعريف الذي أعطاه إبراهيم محمد عزيز للمصطلح بقوله: «الإصلاح هو عملية التغيير أو التعديل أو التصحيح الجزئي في المجتمع ومؤسساته السياسية والاقتصادية والدينية والأسرية نحو الأفضل بشكل

[1] تودوروف تزفيتان (1993): اللغة والأدب في الخطاب الأدبي، بيروت، ترجمة سعيد الغانمي: المركز الثقافي المغربي، ص48

[2] بن حماد الجوهري إسماعيل (2009): الصحاح، تحقيق محمد محمد تامر، باب الحاء، ج1،303، القاهرة: دار الحديث، 384؛ ابن فارس (1979): مقاييس اللغة تحقيق وضبط عبد السلام هارون: دار الفكر؛ الفيروز أبادي (1998): القاموس المحيط، ط6: تحقيق مكتب التراث بإشراف محمد نعيم العرقسوسي: مؤسسة الرسالة، ص 229.

[3] ابن منظور، لسان العرب، ج2، 517: دار صادر.

[4] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ج1، ص520.

[5] ابن الهائم (2003): التبيان في تفسير القرآن، تحقيق ضاحي عبد الباقي محمد، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص51.

تدريجي سلمي، وفي إطار قانوني مؤسساتي، وهذه العملية مرتبطة بمعالجة النواقص والثغرات والمظاهر السلبية ومكافحة الفساد بأشكاله المختلفة»[1].

ومع ذلك يبقى مفهوم الإصلاح واسعا بحيث لا يقف عند تعريف معين، «فحيث ترى نقصا أو ضعفا أو اختلالا، أو اعتلاء، أو اعوجاجا ما، أو موضعا للكمال، فهناك محل إصلاح»[2]. ومن معنى هاتين اللفظتين اشتق المصطلح المركب (الخطاب الاصطلاحي) دلالته، ليدل على النصوص اللغوية ذات المضامين الداعية إلى إصلاح أمور العباد، وإزاحة مظاهر الفساد في المجتمع، وتحسين الأحوال والأوضاع فيه. وبتعبير آخر، هو الخطاب الذي يعبر عن تصورات فكرية حول الواقع وصْفا وتحليلا ونقدا، ويكون مدار الحديث فيه حول القضايا التي تهم المجتمع في ضوء الثوابت الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة وأثر السلف الصالح. وفي هذا الإطار يدخل الخطاب الإصلاحي ل"محمد الحجوي" في هذا الكتاب الذي خصصه للنظر في حال المرأة وإقناع المتلقي بضرورة إصلاح أوضاعها داخل المجتمع. وبما أن الخطاب الإصلاحي في جوهره هو خطاب حجاجي بامتياز، الهدف منه حمل المتلقي على الاقتناع بما يطرحه ويتضمنه الخطاب من أفكار وتصورات ورؤى إصلاحية. وبما أن غاية العملية الحجاجية هي الإقناع، فإن الخطاب الإصلاحي يتميز عن باقي أنواع الخطاب الأخرى ببنائه اللغوي والأسلوبي، وبلغته التواصلية، من خلال توظيف مجموعة من الآليات المختلفة التي تتوفر عليها اللغة العربية وعلومها، خاصة أن جميع العناصر التي يتأسس عليها الخطاب «لابد من أن تنبعث من اللغة، لأننا لا نعرف هذه العناصر إلا من خلال تركيبات لغوية، وهذه التركيبات هي التي تعبر بأصواتها ودلالتها عن الأثر الذي يحدثه النص»[3]. فما هي آليات الإقناع التي بُني عليها الخطاب الإصلاحي عند "محمد الحجوي" في هذه الكتاب؟

المبحث الثاني: آليات الإقناع في الخطاب الإصلاحي عند "محمد الحجوي"

نلاحظ أن الخطاب الإصلاحي يدور كلّه حول موضوع واحد، وهو الدعوة إلى إصلاح أوضاع المرأة، ولاسيما تعليم الفتيات، وهو خطاب يغلب عليه الطابع التبليغي والإقناعي، ساهمت اللغة العربية في أدائه بشكل كبير بفضل إمكانياتها التواصلية، وآلياتها اللغوية والتعبيرية، نوجزها في ثلاث آليات: الآلية المعجمية، والآلية التركيبية، والآلية الحجاجية.

[1] عزيز إبراهيم محمد (2010): إشكالية الإصلاح السياسي في الشرق الأوسط، السليمانية، ط1، ص20.

[2] عبد الحميد الثاني (1982): مذكراتي السياسية، ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص 193.

[3] الزبيدي مرشد (1994): بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة ص19.

المطلب الأول: الآلية المعجمية

يتضح أن "محمد الحجوي"، بالنظر في معجم الخطاب الذي وظفه، أنه يعمدُ إلى اختيار مجموعة من الألفاظ ذات الحمولة الدلالية المرتبطة بقيمة التعليم وأهميته: كالتربية، والتهذيب، والأخلاق، والعلم، والتقدم... وهذا الانتقاء يعزز الحضور؛ ذلك أن تكثيف معجم ذي حمولة إصلاحية، يجعله مؤثرا في المخاطب. وقد صاغ محمد الحجوي تحديدات معجمية للمصطلحات التي ترتبط بحقل "التعليم"، ساعيا إلى حصر دلالة هذا المفهوم والمفاهيم المتعلقة به في ذهن المتلقي، إذ انطلق من تحديد ما يقصده بـ"تعليم الفتيات لا سفور المرأة" في الحقل الديني (الشريعة الإسلامية العالية). ثم انتقل في الجزء الثاني من الكتاب إلى مسألة تحرير المرأة وسفورها، وما وقع فيه من الخلط أو التغليط، سواء من الوجهة الدينية أو الاجتماعية[1]. ويظهر من خلال ذلك، أن "محمد الحجوي" سعى إلى التحديد الدلالي للألفاظ التي يتضمنها عنوان الكتاب، بما يتماشى مع منظوره الإصلاحي. ذلك أنه صنف الأقسام الفرعية لـ(التعليم) بشكل يخالف السائد آنذاك، من قبيل: تعلم القراءة والكتابة والخط والرسم، وتعلم ضروريات الدين، وتعلم الحساب والجغرافية والتاريخ ومبادئ العلوم، وتعلم الأخلاق الإسلامية، وتعلم تدبير المنزل، وتعلم تدبير الصحة والرياضة البدنية، وتعلم فن التربية.. موسعا من دائرة (التعليم) الخاص بالفتاة ليتجاوز التعليم الديني إلى تعليم يشمل مباحث معرفية متعددة.

وإذا كانت الألفاظ التي وظفها "محمد الحجوي" جارية على كل لسان، ومألوفة ومتداولة الاستعمال لا يحتاج المتلقي لفهمها إلى إعمال العقل، أو الرجوع إلى المعجم، و لا تتطلب أي تفكير، وذلك مراعاة لأحوال المتلقي، فإنه قد جعلها خاصة بموضوع الكتاب وأهدافه، حيث أدمجها ضمن نسق معجمي منسجم، ترتبط فيه كل لفظة بالأخرى، وتضطلع دلالتها بوظيفة مخصوصة ضمن مشروعه الإصلاحي، فتعليم تدبير المنزل يربط تعليم الفتاة بوظيفتها بالمجتمع، وتعلم الحساب والجغرافية والتاريخ ومبادئ العلوم يكسب الفتاة المعارف الضرورية لكي تكون فاعلة في المجتمع، دون الخروج عن الإطار العام الذي يحكم تصوره للإصلاح، والمتمثل في الشريعة الإسلامية. «فالألفاظ اصطنعها الإنسان للتعبير عما يخطر في ذهنه...ومن المجازفة أن ينظر إلى تلك الألفاظ الآن على أنها مجرد رموز، فقد ارتبطت بالفكر الإنساني ارتباطا وثيقا، وأصبح من الصعب أن نتصور أي نوع من التفكير بغير هذه الألفاظ»[2]. فكل لفظة، باعتبارها واسطة بين المتكلم والمستمع، اسما كانت أو فعلا أو حرفا لها دورها في الكلام، وتشكل عاملا مؤثرا في المعنى. ولذلك اتسم هذا الخطاب ذي المقصدية التربوية والإرشادية–على المستوى المعجمي–بالبساطة والسهولة والوضوح والفصاحة منذ البداية من خلال انتقاء ألفاظ ذات مدلول واضح وجلي، ولا تقبل تعدد التأويلات. وهي

[1] يراجع، الحجوي محمد: تعليم الفتيات لا سفور المرأة، ص 29–30.

[2] صادق الرافعي مصطفى، وجيدة عبد الحميد (1986): فنون صناعة الكتابة، لبنان: دار الجيل، بيروت، مكتبة السائح، طرابلس، ص180.

سمات وسمت هذا الخطاب الإصلاحي، فحقق بذلك وظيفته المقصدية والانفعالية للتأثير في المتلقي والوصول إلى مشاعره، وذلك لما تحيل عليه معانيها المعجمية من دلالات نفسية ووجدانية. ولذلك تكررت باستمرار في هذا الخطاب[1]، حتى يألفها المتلقي وتترسخ في عقله وذهنه، «فتمتد ظلال معناه بما اكتنز من رصيد انفعالي»[2] من جهة، وحتى تتحقق وظيفة التبليغ والإفهام والإقناع، التي هي القصد والغاية من جهة أخرى. وتؤدي هذه الآلية مجموعة من الوظائف:

- الوظيفة التواصلية: من خلال ربط نوع من التواصل بين المتكلم والخطاب والمتلقي.
- الوظيفة التأثيرية: من خلال انتقاء واختيار وتوظيف معجم مشترك ومألوف لدى المتلقي، معجم أخلاقي بالدرجة الأولى، وذلك لخلق نوع من التفاعل بين المتلقي والخطاب.
- الوظيفة المرجعية: من خلال دلالة هذا المعجم على موضوع الخطاب وغاياته، إذ «ليس يحمد -كما قال أبو هلال العسكري- من القائل إن يعمي معرفة مغزاه على السامع لكلامه في أول ابتدائه حتى ينتهي إلى آخره، بل الأحسن أن يكون في صدر الكلام دليل على حاجته»[3]. وهو ما عمل الحجوي على توضيحه منذ البداية عندما توجه إلى الحاضرين بقوله: «عملا بما اقترحه على بعض السادة الحاضرين بإلحاح، سأتحدث لكم عن تعليم الفتيات المغربيات، وعن حكمه الشرعي وأدلته، والاجتماعي وحكمته، وكيف ينبغي أن يكون، وغلى أي حد ينبغي أن ينتهي»[4].

المطلب الثاني: الآلية الأسلوبية

يعرّف النص أو الخطاب بأنه: «وحدة كلامية تامة مستقلة نسبيا، يحققها المتكلم بهدف معين، وفي إطار ظروف مكانية وزمنية محددة»[5]، غير أنه لا يؤدي وظيفته إلا بفضل الاتّساق النّصي؛ أي الترابط الحاصل بين الجمل ومكوناتها، والمحكوم بقواعد نحوية ودلالية. فإذا كان النَّص «يتكون من جمل، فإنّه يختلف عنها نوعيا. إن النّص وحدة دلالية، وليست الجمل إلا الوسيلة التي يتحقق بها النّصّ»[6]. فلا يكفي أن يُؤسس الخطاب ويُبنى على معجم سهل وبسيط وواضح ليكون في متناول المتلقي، لأن تبليغ القصد لا يتم عن طريق الآلية المعجمية بمفردها فقط، بل أيضا بمراعاة اللغة في مستوياتها المعروفة، ولاسيما فيما يتعلق بقواعد التركيب وسياقات الاستعمال، التي تؤدي دورا رئيسا

[1] الحجوي محمد: تعليم الفتيات لا سفور المرأة، ص 29-31-34-35-37-38-51-58-59-60-64-65-66-73-88.

[2] محمد يونس علي (2007): المعنى وظلال المعنى، بيروت، دار المدار الإسلامي، ص196

[3] الصناعتين، ص 501.

[4] الحجوي محمد، تعليم الفتيات، ض29.

[5] واورزياك زتسيسلاف (2003): مدخل إلى علم النص، ط1، مصر، ترجمة وتعريب، سعيد حسن بحيري: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ص53.

[6] خطابي محمد (2006): لسانيات النّص، المركز الثقافي العربي، ط2، المغرب، ص13

في حصول الفائدة. فالتراكيب اللغوية هي أيضا رسائل تؤدي أغراضا تواصلية معينة، من خلال مجموعة من العلاقات التي تربط بين ألفاظ الخطاب الواحد، كالمشاركة والتعارض والتقابل وسواها، مما يضفي على الخطاب نوعا من الترابط والانسجام اللغوي والدلالي، وتجعله ملائما للمواقف الاتصالية التي أُنشئ من أجلها، وخاصة الخطابات ذات الطبيعة التربوية التوجيهية كالخطاب الإصلاحي. فالخطاب باعتباره تسلسلا من الجمل، لا يُنجز بطريقة اعتباطية، ولكنه يخضع لضوابط اللغة المستعملة وأساليبها.

وبتأملنا في هذا الخطاب يتضح أنه اعتمد في تركيبه على ضوابط لغوية دقيقة، حيث تتالت الجمل انطلاقا من الجملة الأولى، لتشكل جميعها خيطا واحدا لتحقق الهدف المتوخى، وهو تبليغ المتلقي بالرسالة الداعية إلى تعليم الفتيات. وبذلك تأسس هذه الخطاب وفقا لما يتطلبه الموقف التواصلي، بفضل اتساقه المعجمي، وبفضل القرائن التي توفرها اللغة العربية، والتي يمكن تحديدها – كما وردت في نصوص هذا الخطاب–في قرينتين: قرينة التكرار وقرينة التضام، والتي تعمل متضافرة للكشف عن المقصود والغاية منه.

الفرع الأول: قرينة التكرار

يعرف التكرار بأنه: «إعادة عنصر معجمي، أو ورود مرادف له أو شبه مرادف، أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما»[1]. وبتعبير " صبحي إبراهيم الفقي"، «هو تكرار أو إعادة لفظ، أو جملة، أو عبارة، أو فقرة، وذلك باللفظ نفسه، أو بمرادفه، أو شبه المرادف، وذلك لتحقيق أشياء كثيرة أهمها تحقيق التماسك، أو الاتساق، أو الربط النّصي بين عناصر النص»[2]، إضافة إلى تأكيد المقصود من الكلام. والنماذج على ذلك كثيرة في الكتاب، منها تكراره للفظتي " التربية والتهذيب" مرات عديدة[3]، وللفظ (الأم) غير ما مرة: «فالأم هي أول مدرسة ... وعن الأم يلقّن الولد... وعن الأم ...»[4]، وتكراره للفظ (التربية)[5]، و(الأخلاق)[6]، وللفظ (التعليم)[7]، وللفظ (الفتاة)، و(النواة)، و(الدوحة) في قوله: «إن الفتاة هي نواة العائلة، بل نواة الأمة، إذ فتاة اليوم هي أم الغد. وهل الأولاد إلا غض من دوحتها؟ وهل الحديقة إلا مجموع تلك الدوحات وغصونها؟»[8]، ولفظ (الصلاح)، و(الفساد)، و(العائلة)،

[1] المرجع نفسه، ص24.
[2] إبراهيم الفقي، صبحي (2000): علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ص20.
[3] أنظر: تعليم الفتيات، ص، 51-57-59-60-61-62-67-68-73-123-124.
[4] الحجوي محمد: تعليم الفتيات لا سفور المرأة، ص 51-52، 57-58-59.
[5] المرجع نفسه، ص 12-51-57-59-60-68-73.
[6] المرجع نفسه، ص 64-65-66-88.
[7] المرجع نفسه، 29-31-34-35-37-38-58.
[8] المرجع نفسه، ص51.

و(الأم)، في قوله: «إنّ للتربية البيتية أعظم تأثير على الأولاد، أكثر من المدارس، فأصل صلاح العائلة بصلاح الأم، وفسادها بفسادها، وصلاح العائلة به صلاح الأمة، فالأم لها تأثير عظيم على فكر الولد بتعليمها وبطباعها وأخلاقها»[1]. وهوما حقق نوعا من الربط بين مكونات الخطاب من خلال استمرارية المعنى بواسطة العلاقات المعجمية القائمة بين ألفاظ الخطاب، وذلك من أجل بناء الفكرة الأساسية التي صيغ من أجلها هذا الخطاب أولا، وتبليغها إلى المتلقي ثانيا.

الفرع الثاني: قرينة التضام

يعرف "محمد خطابي" التضام، بقوله: «توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة، نظرا لارتباطهما بحكم هذه العلاقات أو تلك»[2]، مثل علاقة التضاد، وعلاقة الجزء بالكل، وعلاقة العموم والخصوص، وغيرها من العلاقات التي تقوم بوظيفة الترابط والاتساق النصّي، وهي شائعة وكثيرة في اللغة العربية مما يصعب معه حصرها في هذا المقام. وبنظرة بسيطة في هذا الخطاب، نجد حضورا واضحا لهذه القرينة عبر عدة أنواع من العلاقات، أهمها:

- علاقة الترادف: تمثل بالأساس في الترادف الدلالي بين الكلمات في الخطاب وخاصة بين ألفاظ التربية والتعليم والتهذيب فأدى بذلك –إضافة إلى المسحة الجمالية الناتجة عن التنويع اللغوي المعجمي–وظيفة التوضيح والتأكيد، و" المراوحة في الأسلوب وطرد الملل والسآمة" كما عبر السيوطي في المزهر.

- علاقة التضاد: تجسدت في مقابلة " الخير " ب الشر" و" الصغر" ب " الكبر" كما جاء في قول الحجوي: «ومن فطرة الانسان التقليد، ومن التقليد يأتيه الخير والشر، فإن قلّد أبويه في الخير كان ولدا صالحا، والعكس بالعكس. وما قلّدهما فيه في الصغر صعب محوه في الكبر»[3]. وفي مقابلة " الفضيلة" ب" الرذيلة"، و" الرفيعة" ب" الوضيعة"، و" الابتداء" ب"النهاية"، و" الكمال" ب" النقصان" في قوله: «فالبنت أو الأم هي الداعية الأكبر للدين، والنّاشرة له والحافظة لأمانته...فهي النّاشرة للفضيلة والرذيلة، وها نحن نرى أولاد العائلات الرفيعة والوضيعة ونفرق بينهم بمجرد الاجتماع والعشرة، فنعلم تأثر كل واحد بالتربية الحسنة أو ضدها، فذاك منطبع على الفضيلة، وهذا على الرذيلة، ففي البيت ابتداء كماله أو نهاية نقصانه»[4]، وسواها من المقابلات (النساء/ الرجال)، (الذكر/ الأنثى)، (البنون/ البنات)، (العلم/ الجهل)، (التقدّم/ التأخّر).

[1] المرجع نفسه، ص57.
[2] لسانيات النّص، ص25.
[3] تعليم الفتيات، ص57.
[4] المرجع نفسه، ص85.

- علاقة الجزء بالكل: كما جاء في خطاب "الحجوي" لما قال: «والأم هي أول مدرسة يلقّن عنها الولد كل تربية وتهذيب. فعن الأم يأخذ الأولاد مخارج الحروف، ومعرفة اللغة، وحسن المنطق، وفصاحة اللسان، واتساع الفكر، وكيفية التفكير، وحسن التؤدة، والنشاط في الحركة، واعتدال الأحوال، وسائر الخصال والأخلاق الحميدة أو ضدها»[1]، بحيث تدخل كل هذه الخصال (الأجزاء) في الكل الذي هو التربية والتهذيب. وهي كلها عناصر تضامية أضفت نوعا من التنوع المعجمي على الخطاب، وشكلت آصرة للتماسك والترابط بين الجمل باعتبار التعالق الحاصل بينها، والناتج عن التعالق الدلالي بين الألفاظ المكونة لها.

المطلب الثالث: الآلية الحجاجية

يتسم الخطاب الإصلاحي ذو الطبيعة التوجيهية عن غيره من أنواع الخطابات، إضافة إلى الوظيفة الإخبارية بالوظيفة الإقناعية، «فالإنسان –كما قال أرسطو–لأنه متكلّم معبّر يبحث بطبعه عن الإقناع، ويحاول أن يصل بكلامه إلى إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بوسائل مستمدة من التفكير الذي حوبي به»[2]، ولا يتحقق الإقناع من المنظور الأرسطي إلا بفعل ثلاثة أركان:

- (الإيتوس) القائل: بفضيلته وسلوكه وأخلاقه المؤثرة في المتلقي.
- (اللوغوس) القول: وهو الرسالة التي يجب تبليغها، والتي يجب أن تحتوي على الألفاظ والبراهين التي من شأنها التأثير في المتلقي.
- (الباتوس) المتلقي: والذي يجب أخذه بعين الاعتبار، لأنه هو المعني بالرسالة والخطاب، من خلال مراعاة أحواله العاطفية والاجتماعية والثقافية وسواها.

وهي أركان تمثلت كلها في هذا الخطاب، فالمتكلم عالم وفقيه يُشهَد له بذلك من قبل مجموعة من العلماء، والرسالة نبيلة تحث على إصلاح أحوال المرأة المجتمع وتعليمها وتهذيبها، والمتلقي هو الإنسان المسلم عامة كما يتضح من كلام الحجوي: «فاتقوا الله يا مسلمين، وتمسكوا بالحبل المتين: الشريعة والدين يا أمة القرآن»[3]. ولذلك جاء الخطاب إخباريا تقريريا وتوجيهيا، وبلغة عربية لما تمتلكه من إمكانيات تعبيرية ولغوية، ومن ضمنها الآلية الحجاجية. «فاللغة لا تؤدي وظيفة مرجعية تحيل

[1] المرجع نفسه، ص51.
[2] طاليس أرسطو (1953): كتاب الخطابة، تحقيق إبراهيم سلامة، ط1، مصر: المكتبة الأنجلو مصرية، ص42.
[3] تعليم الفتيات، ص76.

إلى مدلول، بل تؤدي إلى وظيفة تداولية تتفاوت بحسب القصد والهدف الذي من أجله يسوق المتكلم خطابه»[1].

وما دام الهدف هو الإقناع، فإن الخطاب يتطلب استخدام مجموعة من الآليات والعناصر اللغوية والبلاغية التي يتم توظيفها حجاجيا من أجل الوصول إلى الهدف المتوخى وهو الإقناع. ولهذا حرص "الحجوي" على توظيف لغة تثير انتباه المتلقي، وعلى أساليب تعبيرية تتضمن طاقة حجاجية، وحيلا لغوية مختلفة منها ما يخاطب ويتجه إلى العواطف والقلوب كما جاء في قول "الحجوي": «إن أخلاق المرأة وتبعلها لزوجها أنفع لها من مالها وجمالها، فحُسن الخُلق مقدّم عند عقلاء النّاس على حسن الخَلْق – بفتح سكون–وما سعادة المرأة إلا في اخلاقها الكريمة الدائمة لا في جمالها الذاهب. فلتكن عروسة صالحة، وأمّا رؤوما، لتصلح لسيادة البيت ورياسته، أما الجمال أو المال وحدهما فلا يؤهلانها لذلك، لا سيما مع انتشار العلم في الذكور، وإثمار المدارس ذكرانا متعلّمين يوجب إثمار بنات مهذبات، والولد الذي له معارف يميل إلى زوجة تجانسه طبعا، ولو نقص جمالها ومالها، طلبا للمناسبة»[2]. وذلك باستعمال آليات حجاجية، على اعتبار أن الحجاج هو «إنتاج طريقة معينة في الاتصال، غايته استمالة عقول الآخرين والتأثير فيهم، وبالتالي إقناعهم بمقصد معين»[3]. وقد تجسدت هذه الآليات بوسائل لغوية يمكن حصرها في هذه الخطاب في:

الفرع الأول: الروابط اللغوية

وتمثلت في استعمال مجموعة من الأدوات التي تؤدي وظيفة الربط بين الأقوال، أو الجمل، وتساعد في توجيه المتلقي لكي يستوعب القول الحجاجي، مثل حروف العطف، وإنّ، وأَنّ، وبل، ولكن، وحتّى... بحيث يتسم كل واحد منها بدلالة تستنتج من السياق. وأكثر هذه الأدوات استخداما في هذه الخطاب هي:

- الأداة " إنَّ": وهي من أهم روابط التعليل والتفسير، وتفيد التوكيد أو الشرط، كما لها دلالات أخرى تستفاد من السياق. وقد جاءت في مختلف فقرات هذا الخطاب في مقدمة الكلام أسوق منها النماذج التالية للاستدلال:

– «إنّ فكري في هذه المسألة في هذه المسألة مشهور لديكم...»[4].

[1] بن ظافر الشهري عبد الهادي (2003): استراتيجيات الخطاب، ط2، ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ص8.
[2] تعليم الفتيات، ص65–66.
[3] بن عيسى عبد الحليم (2006): البيان الإعجازي في القرآن الكريم–سورة الأنبياء نموذجا، عدد 102، دمشق: مجلة التراث العربي، اتحاد كتاب العرب، ص36.
[4] تعليم الفتيات، ص31.

- «إن الإسلام ثقافة وعلم وتهذيب وأخلاق...»[1]
- «إن النّساء شاركن في أعمال عظيمة...»[2]
- «إن للتربية البيتية أعظم تأثير في الأولاد...»[3]
- «إن أخلاق المرأة وتبعلّها لزوجها أنفع لها من مالها وجمالها...»[4]

فأدت بذلك هذه الأداة وظيفة تأكيد وإثبات الحجج التي يستخدمها "الحجوي" في خطابه وربط النتيجة بالحجة، من أجل إقناع المتلقي بأهمية قيمة تعليم المرأة وتربيتها.

- أداة " الواو": وهو رابط خطّي يقوم على الجمع والتأليف بين جملة سابقة وأخرى لاحقة، كما هو واضح في قول "الحجوي": «إن العقيدة إذا تكررت على ذهن الصبي، مرّة بعد مرّة، وقبلها اكتسبها ملَكة لا تزول...سواء أكانت عقائد دينية أو غيرها، كالكرم والاقتصاد في مرافق المعيشة، والادخار لوقت الحاجة، والنشاط في العمل، والرحمة بالضعفاء، وحسن الخلق، وهدوء الجوارح، والشجاعة، وحب نفع البلاد، والتعلق بالحقائق، والمران على التفكير في الأفكار العالية، وكل مكارم الأخلاق»[5]. أو في قوله: «إنّ للتربية البيتية أعظم تأثير على الأولاد، أكثر من المدارس، فأصل صلاح العائلة بصلاح الأم، وفسادها بفسادها، وصلاح العائلة به صلاح الأمة، فالأم لها تأثير عظيم على فكر الولد بتعليمها وبطباعها وأخلاقها، فمن فم الأم إلى فؤاد الصبي، والتعليم في الصغر كالنقش في الحجر، ففي زمن الطفولية ينطبع فكر الصبي، وطبعه على الصور الجميلة، والأخلاق الجميلة، واللغة الجميلة، أو ضد ذلك، يطيب إن طابت، ويخبث إن خبثت»[6]. إذ إضافة إلى قيام " الواو" بوظيفة الربط بين الحجج وفق ترتيب أفقي، وبينها وبين النتيجة، فإنه ساهم في تأكيد المعنى، وفي تحقيق انسجام النص وتماسكه من خلال ترتيب الحجج وفق سلميّة معينة وبشكل منتظم بحيث تعمل كل حجة على تقوية الأخرى، فشكل بذلك أحد وسائل الاتساق والربط النّصي، باعتبار أن الحجاج «يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها»[7]، فعمِل " الواو" على الوصل بين الحجج وترتيبها وفق سلّم نسقي باتجاه الحجة الأقوى.

[1] المرجع نفسه، ص34.
[2] المرجع نفسه، ص41.
[3] المرجع نفسه، ص57.
[4] المرجع نفسه، ص65.
[5] المرجع نفسه، ص58.
[6] المرجع نفسه، ص57.
[7] بوبكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص16.

- أداة " الفاء": وهي من الأدوات التي تقوم إضافة إلى العطف، بوظيفة الحجاج، إذ تفيد التعليل والتفسير والتعقيب، وتعمل على ربط الحجج بعضها ببعض شأنها شأن "الواو"، كما يتضح من قول "الحجوي" السابق الذكر.

الفرع الثاني: الروابط الأسلوبية

وتمثلت في هذا الخطاب في الأسلوب الإنشائي من خلال صيغة الأمر التي تعتبر من الأساليب الحجاجية في اللغة العربية، وخاصة عندما تخرج عن معانيها الحقيقية إلى معان أخرى يقتضيها السياق؛ كالالتماس والإرشاد والتوجيه، الذي تنوع التوجيه في خطاب "الحجوي" بين نوعين: التوجيه الإلزامي، والتوجيه الإثباتي.

أ- التوجيه الإلزامي: وتفيده صيغة الأمر، والذي يغدو فيغدو الأمر حينذاك « فعلا كلاميا يؤدي أغراضا خطابية ووظائف تواصلية معينة، يحكمه مبدأ الغرض أو القصد الذي يبتغيه المتكلم من الخطاب»[1]، ويمنح الأفعال قوة وفاعلية أكثر تأثيرا في المتلقي بفعل قوته الحجاجية، وفاعليته التأثيرية ، خاصة عندما يخرج عن وظيفته الأساسية إلى وظيفة التوجيه والإرشاد بجعله المتلقي يتصرف وفقا لتوجيه المتكلم، فيستمد الأمر قوته الإقناعية من شخصية الآمر، فيغدو التوجيه إلزاميا كما هو واضح من كلام الحجوي: «فلتترك الفتاة هذه الوظائف للرجال الذين عليهم أثقال الحياة، ولتقتصر على وظيفها الذي هو أليق بها...، واعلموا أن السبب الأعظم في الأزمة الموجودة في العالم عند جل الأمم، تسوية المرأة بالرّجل في جميع ميادين الحياة»[2]. وقوله: «فاتقوا الله يا مسلمين، وتمسكوا بالحبل المتين: الشريعة والدين يا أمة القرآن»[3].

فقوله "فلتترك" و" لتقتصر" و" اعلموا" أفعال جاءت بصيغة الأمر، ولكن الغرض منها هو النصح والإرشاد وتوجيه المتلقي للعمل بما يرد بعد الأمر، لأن الهدف هو إرسال رسالة للمتلقي وإقناعه بالعمل بمقتضاها.

ب-التوجيه الإثباتي: ويسعى من خلاله المتكلم إلى التأكيد على فكرة ما، اعتمادا على وسيلتين هما: الاستدلال وإقامة الحجة، وأدوات التوكيد.

[1] العشراوي عبد الجليل (2016): آليات الحجاج القرآني، دراسة في نصوص الترغيب والترهيب عالم الكتب الحديث، الأردن، ص38.

[2] تعليم الفتيات، ص72-73.

[3] المرجع نفسه، ص76.

- الاستدلال وإقامة الحجة: يقول "الحجوي": «وقد دللت على ذلك بأدلة بسطتها في المسامرة السالفة التي طبعتها النهضة التونسية...ونشرتها وتقبلها العالم الإسلامي شرقا وغربا بأكمل قبول»[1]. بهذه العبارة استهل "الحجوي" خطابه الإصلاحي ودعوته إلى تعليم الفتيات منذ البداية بتقديم الحجج المقنعة للمتلقي لتهييئه وإعداده لتقبّل ما سيأتي والاقتناع به، مستمدا إياها من الشريعة الإسلامية ومبادئها، ومستدلا عليها من الكتاب والسّنة والسلف الصالح. وهي على التوالي كما وردت في الخطاب[2]:

- الأولى: عدم تعارض الكتاب والسنة مع تعليم المرأة. إذ لم يقف-كما قال-«في الكتاب والسنّة على دليل يمنع المرأة من العلم، أي علم كان، أو يوقفها عند حد محدود في التعليم العربي الديني»[3].

- الثانية: ثقافة الإسلام التي هي ثقافة تهذيب وأخلاق. إذ «كيف يتصور عاقل -كما قال-أن يمنع من تعلم المرأة ويترك نصف المتدينين به خلوا من الثقافة والفضيلة؟»[4]، مستدلا بما ورد في في الصحيح: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وبمحمد (ص)، والعبد المملوك إذا أدى حق الله تعالى وحق مواليه، ورجل كانت له أمة فأدبها وأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»[5].

- الثالثة: طلب العلم معرفة. واستدل عليه بقوله عليه الصلاة والسلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[6].

- الرابعة: معرفة حكم الله في الأمور قبل الإقدام عليها. وهو – كما قال-«من ضروريات الفقه والدين»[7].

- الخامسة: الاقتداء بالرسول (ص). والذي كان «يجعل لهن يوما مخصوصا لتعليمهن»[8].

[1] المرجع نفسه، ص31.
[2] المرجع نفسه، ص ص31-41.
[3] المرجع نفسه، ص32.
[4] المرجع نفسه، ص33-34.
[5] المرجع نفسه، ص35. والحديث – كما جاء في الهامش-أخرجه البخاري، 190/1، و145/6و878، و126/9. ومسلم، 189/2-187. والسيوطي في مطلع البدرين فيمن يؤتى أجره مرتين.
[6] المرجع نفسه، ص36.
[7] المرجع نفسه، ص38.
[8] المرجع نفسه، ص38.

- السادسة: مساهمة المرأة في تأسيس الإسلام، «فما من منقبة سبق الرجال إليها، كالهجرة، والبيعة، والجهاد، والنصرة في الدين، ولإعلاء شأنه ونشره والدعاية إليه، إلا وكان للنساء حظهن في ذلك»[1].

- السابعة: القرآن مدرسة البنات. فمن آياته – كما قال "الحجوي"– «تكونت مدرسة النساء، أعني تعليمهن وتهذيبهن، وإثبات حقوقهن في الحياة رغما على أنف كابرّ»[2] .

- أدوات التوكيد: و«تعدّ الضمان لحقيقة الكلام...لأن الإقناع يحصل لدى المتكلم بمجرد أن القضية المعروضة عليه جاءت موجهّة توجيه إثبات»[3]. ولذلك حرص "الحجوي" في خطابه على توظيفها كلما تعلّق الأمر بالإقناع كما سبق أن بيّنا من قبل.

الخاتمة:

لا تتأسس فاعلية الخطاب دون أن تكون هناك حاجة إليه، ودون أن يكون هناك هدف يسعى إليه المتكلم. وغاية "محمد الحجوي"، كما بينا في تحليلنا، كانت هي إصلاح أوضاع المجتمع، ولاسيما أحول المرأة فيه، وانطلاقا من هذا المسعى بنى المفكر خطابه في هذا الكتاب بناء حجاجيا متماسكا، تتوسل بآليات حجاجية متنوعة؛ إذ القصد فيه هو التأثير في المتلقي، وإقناعه بالانخراط في مشروعه الفكري الإصلاحي الداعي إلى تعليم الفتيات وتربيتهن وتهذيبهن، حتى يسهمن في بناء مجتمع راق وسليم.

ولعل المتأمّل في خطاب الحجوي سيلاحظ لا محالة اعتماده على مجموعة من التقنيات، وعلى تطويع بعض الأساليب اللغوية لإقناع مخاطبيه بهذه الرسالة. وهو ما عملنا على بيانه في هذه الدراسة آملين أن نكون قد حققنا المراد. وقد ركزنا على ثلاث آليات، وظفها المفكر الإصلاحي، وتتمثل في:

- الآلية المعجمية، حيث حدد "محمد الحجوي" الحمولة المعجمية والدلالية للألفاظ التي وظفها، وحصرها في إطار منظوره للإصلاح؛

- الآلية الأسلوبية، حيث وظف "محمد الحجوي" مجموعة من العناصر التضامية؛ من قبيل التكرار والترادف وعلاقة التضاد وعلاقة الجزء بالكل، أضفت نوعا من التنوع المعجمي على الخطاب، وشكلت آصرة للتماسك والترابط بين الجمل باعتبار التعالق الحاصل بينها، والناتج عن التعالق الدلالي بين الألفاظ المكونة لها.

[1] المرجع نفسه، ص41.

[2] المرجع نفسه، ص49.

[3] صولة عبد الله (2007): الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، ط2، بيروت: دار الفارابي، ص320.

- الآلية الحجاجية، حيث استخدم "محمد الحجوي" مجموعة من الآليات والعناصر اللغوية والبلاغية التي يتم توظيفها حجاجيا من أجل الوصول إلى الهدف المتوخى وهو الإقناع. ولهذا حرص "الحجوي" على توظيف لغة تثير انتباه المتلقي، وعلى أساليب تعبيرية تتضمن طاقة حجاجية، وحيلا لغوية مختلفة منها ما يخاطب العقل، ومنها ما يتجه إلى العواطف والقلوب، وهذه الآليات تتضافر من أجل تحقيق خطاب إصلاحي، يروم تغيير أوضاع المجتمع عموما، وأحوال المرأة فيه على وجه التحديد.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن منظور، (2010)، لسان العرب، تحقيق أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ط 1، بيروت: دار إحياء الثرات العربي.
- أبو البقاء بن موسى الحسيني الكفوي، (1998)، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، وضع فهارسه وأعده للطبع، عدنان درويش ومحمد المصري، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- أبو عرقوب، إبراهيم، (2009)، الاتصال الاجتماعي ودوره في التفاعل الاجتماعي، ط1، عمان: مجدلاوي للنشر والتوزيع.
- أبوبكر، العزاوي، (2016)، اللغة والحجاج، ط1، عمان: عالم الكتب الحديث.
- أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، ابن الهائم، (2003)، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق د ضاحي عبد الباقي محمد، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- أحمد بن محمد، الفيومي، (2016)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تحقيق عبد العظيم الشناوي، ط2، القاهرة: دار المعارف.
- أحمد، ابن فارس، (1979)، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، ط 1، دمشق: دار الفكر.
- أرسطو، (1953)، كتاب الخطابة، تحقيق إبراهيم سلامة، ط1، القاهرة: المكتبة الأنجلومصرية.
- إسماعيل بن حماد، الجوهري، (2009)، الصحاح، تحقيق محمد محمد، ط9، القاهرة: دار الحديث.
- أنيس، إبراهيم، وزملاؤه، (1993)، المعجم الوسيط، ط2، مكة المكرمة: دار الباز.

- بليث، هنريش، (1999)، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النصوص، ترجمة وتقديم وتعليق، محمد العمري، ط1، بيروت، إفريقيا الشرق.
- تزفيتان، تودوروف، (1993)، اللغة والأدب في الخطاب الأدبي، ترجمة سعيد الغانمي، ط1، بيروت: المركز الثقافي المغربي.
- الخليل بن أحمد، الفراهيدي، (2003)، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
- صبحي إبراهيم، الفقي، (2000)، علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق، ط1، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- عبد الحميد الثاني، (1982)، مذكراتي السياسية، ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- عبد الله، صولة، (2007)، الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، ط2، بيروت: دار الفارابي.
- الشهري، عبد الهادي بن ظافر (2003)، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط2، بنغازي: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- علي محمد، يونس، (2007)، المعنى وظلال المعنى، ط1، بيروت: دار المدار الإسلامي.
- الفيروزابادي، مجد الدين، (1998): القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط6، دمشق: مؤسسة الرسالة.
- خطابي، محمد (2006): لسانيات النّص، ط2، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- محمد عزيز، إبراهيم، (2010): إشكالية الإصلاح السياسي في الشرق الأوسط، ط1، السليمانية : مطبعة الرون.
- محمد، الحجوي، (2004): تعليم الفتيات لا سفور المرأة، ط1، بيروت:دار ابن حزم.
- مرشد، الزبيدي، (1994): بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر، ط1، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- مصطفى، صادق الرافعي؛ وجيدة، عبد الحميد (1986): فنون صناعة الكتابة، ط1، طرابلس: دار الجيل.

- واورزياك، زتسيسلاف (2003): مدخل إلى علم النص، ترجمة وتعريب، سعيد حسن بحيري، ط1، القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.
- أعراب، حبيب (2001): الحجاج والاستدلال الحجاجي، ، المجلد 30، العدد1:عالم الفكر من ص97 إلى ص139.
- محمد، العمري، (1991): المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، عدد5، خريف، شتاء، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، ص 7 – 24.